

المعروف «بنصير الفقراء»، ولعل هذا الامر يفسر لنا جانباً من عقلية وخلفية بعض عناصر رجال العصابات، حيث ينحدر الكثيرون منهم من مدينة الصدر، التي أول ما جرى تأسيسها على يد عبد الكريم قاسم، وكانت تعرف بمدينة الثورة، حيث جُمع كل سكان الصرائف والعشوائيات في بغداد ليقبموا في مدينة حديثة في شرق العاصمة، شيدت خصيصاً لهم، مزودة بالماء والكهرباء والطبابة والمدارس. وينحدر أبناء الصرائف تلك من فلاحين هجروا قراهم بجنوب العراق، بسبب ظلم الإقطاع نحو المدن الكبيرة. وظل لعبد الكريم قاسم تأثير قوي على كل أهل مدينة الثورة الفقيرة التي صارت تعرف اليوم بمدينة الصدر.

لم يشترك أبناء العصابات في نظام المحاصصة الطائفية كما فعل قادة التيار الصدري بقيادة مقتدى الصدر. وهو التيار الذي انشقوا عنه، ويبدو أن الثراء والسلطة اللذين نالتهما نخبة التيار الصدري قد أفسداهم أو أغلبهم على الأقل بينما بقي أبناء العصابات بعيدين عن السلطة ومفاسدها بفضل انخراطهم بالعمل المقاوم ضد المحتل حتى فترة قريبة. وهو الأمر الذي أبقى روحهم الثورية والصدرية، وربما شيئاً من «القاسمية» حية، التي ساهمت في بلورة وعيهم الاجتماعي.

### خاتمة

ما أتوقعه هو ألا تؤدي التظاهرات هذه المرة إلى تغييرات راديكالية في العراق، ولكن قد تكون هناك فرصة أكبر لحصولها بعد انتهاء المعارك، ما سيبدل الكثير من الحقائق والتوازنات على الأرض، ويغير نظام المشاركة بنظام الأغلبية، أو حتى نظام أكثر مركزية، وخاصة إذا ما عاد بعض رجال الحشد، وعمل بعضهم كالعصابات على تطوير خطابهم الاجتماعي والوطني ليكسبوا ثقة ما أمكن من شعبهم وحلفائهم. ولعلمهم وغيرهم من قوى المقاومة في المنطقة، يعون خطورة انتشار الفقر والبؤس بين شعوبهم، وخاصة أن ثلاثة بلدان حتى الآن (العراق، سوريا، اليمن) أكلت بناها التحتية ودمرت اقتصادها الحروب والفساد وسوء الإدارة، ولن يعود جنودها وفقراؤها ليروا الفوارق الطبقة للنخب على أنه قدر سماوي، بل قد تجري على ألسنتهم مقولة أبو حيان التوحيدي الحادة، حين سئل عن الوزير الصاحب بن عباد، وكان ثرياً، فقال: «سفهه ينفي حكمة خالقه، وغناه يدعو إلى الكفر برازقه، ولعن الله الفقر فهو الذي يخبل المرءة ويقدم في الديانة»

فالفقر والظلم كافران...

\* كاتب عراقي

العصابات هنا أنها ليست تنظيمياً سلمياً صغيراً وحالماً بل هم قوة عسكرية، لها شريعته الشعبية المتصاعدة، وليس من الحكمة تجاهلها وعزلها. يتحدث أمينها العام قيس الخزعلي بكل شجاعة عن ضرورة إقصاء الأوليغارشية التي ينعته «بالإقطاع السياسي»، وتتميز خطاباته عن غيره من معلمي العراق، الذين بمقتهم العلمانيون، باستخدامه مفردات الطبقة، والأغنياء، والفقراء، والمهمشين، والإقطاع، والفلاحين الخ... وهو أمر من المثير أن تسمعه من زعيم تنظيم مقاوم، حيث أن الكثير من حركات المقاومة الحالية لم

## ما هو سبب صمت السفارة الأميركية عن حملة العبادي ضد الفساد؟

تعوّدنا طرح المسألة الاجتماعية، وكأنها ليست جزءاً من أمنها وأمننا القومي. ففي خطبته التي ألقاها في مدينة الرفاعي في شباط 2015، أوضح الخزعلي للحضور نظام «الإقطاع السياسي» نهب العراق، فتأكلت «الطبقة الوسطى»، وصرنا كالهند «أكثرية فقيرة»، شبيههم بالفلاحين، مستغلة من «أقلية غنية» شبيههم بالملاكين «أيام الإقطاع الزراعي». وقال أيضاً إن هناك «طبقة سياسية برجوازية» حددها بالسياسيين وأسرهم وحاشيتهم، تستغل الأغلبية الفقيرة. ثم عاد وشرحها لحضوره الريفي فسامهم «أولاد المسعدة» مقابل «أولاد الخاوية». وهنا طالب «بثورة جماهيرية»، لا عسكرية، وأنها كمقاومة لن نسكت، بل سندعم شعبنا ونقاتل معه «فخطوطنا الحمراء هي أرواح، وأعراض وأرزاق الناس».

وبينما قد تسمع خطاباً أكثر وعياً بالمظالم الاجتماعية لدى مفكر إسلامي كعلي شريعتي مثلاً، لكن لم يكن لشريعتي ميليشياً تدعّمه، أما الخزعلي، فله جماهير وحركة مقاومة مسلحة ومحطة تلفزيونية وحضور برماني معارض وحلفاء إقليميون. ونرى مثلاً في تلفزيون «العهد» التابع لتنظيمه برنامج «كلام وجيه» الذي تُعرض فيه أشد أشكال النقد لفساد الحكومة ومظاهر ثراء مسؤوليها. ويُعرف فيه المقدم نفسه بأنه فلاح ابن فلاح، وأنه ابن الأرض كما يقال. فهو ابن الشعب ويبدى نكاهاً ملحوظاً بفضح تجاوزات الحكومة ومحاولاتها الالتفاف على مطالب الجماهير، وقد تعرض للتهديد أكثر من مرة، وللمساءلة القانونية إثر عرضه لتجاوزات النائب المقال بهاء الأعرجي، ورجل الأعمال العراقي عون حسين الخشلوك، صاحب قناة «البغدادية»، وغيرهما.

وغالباً ما يجري التطرق بالخير للزعيم الراحل عبد الكريم قاسم (1958-1963)،

فستحاول هذه التظاهرات أن ترسخ فكرة الحكم العلماني في العراق، التي لا تنوي في النهاية ضرب أحزاب السلطة الفاسدة فحسب، بل ستصطدم وفق منطقها المعادي للإسلاميين بقوى الحشد الشعبي بدعوى أنها في النهاية قوى طائفية إسلامية علينا أن نحمي ثقافتنا وتنوعنا ورفاهنا منها.

وبصراحة لن أستغرب إن انضمت المرجعية لدعوة هؤلاء بإنشاء ما يسمى الدولة المدنية. فهم يخشون أغلب القوى المكونة للحشد الشعبي، حالهم كحال المنظمات الليبرالية، وكما أوضحنا في مقال سابق أنه لولا خطر داعش لما بارك جهادهم، وستكون حينها حملة دعاة العلمانية على الإسلاميين رافداً لدعوى العبادي وجهود طبقته السياسية بإبعاد قوى الحشد الشعبي عن السلطة بدعوى إبعاد العسكر عن السياسة، وسنعود في مقالة مقبلة لأزمة العلمانية في العراق والمشرق.

### حين يرمج الحشد لاهله

تقول الكثير من السرديات اليسارية في غرب أوروبا إن ما أجبر النخبة فيها على التنازل أمام الضغوط الشعبية بعيد الحرب العالمية الثانية وإرساء مشاريع دولة الرفاه، كمشاريع الإسكان والرعاية الصحية، والضمانات الاجتماعية السخية، والتقاعد، الخ... هو خشيتها من شعبها الذي تعلم فن الحرب. فلم يعد أبناء البروليتاريا العائدين من خنادق الجبهات ومعاركها تخيفهم الهراوات ورساوس الشرط. ومع انتشار الفكر اليساري الثوري في كل أنحاء أوروبا آنذاك ووجود الاتحاد السوفياتي كبديل جدي وفعال للرأسماليات الأوروبية في ما يخص هذه الحقوق، صار على النخبة أن تتجنب إغضب الشعب واحتقاره.

وكما بعد نهاية كل حرب سيعود رجال الحشد إلى البؤس والمدن المدمرة وحكومة الفساد والفوضى، فهل سيقبلون الفقر والتهميش؟ وهذا ما يقودنا إلى السؤال التالي هل ستعمل قوى الحشد المقاوم، أو بعضها، على تطوير رؤية سياسية لمبدأ العدالة الاجتماعية والنضال من أجلها إن عادت وقررت المساهمة في العمل السياسي؟ من المعروف أن حزب الله كحركة مقاومة قدم لجمهوره الحزبي إن صح التعبير منظومة دعم وتكافل اجتماعي ساعدت فقراءه وأيتامه وأرامله، ما عزز جبهته الداخلية ورسخها، ولكن ظروف لبنان السياسية، وحجمه السكاني والجغرافي، يختلفان عن العراق، فما وفره الحزب من جمعبات أهلية تكافلية لن ينجح في العراق، إن لم تتبناه الدولة وبضغط من الحشد والقوى الشعبية.

### المقاومة والفقر والكفر

ومن بين كل القوى الإسلامية والقوى المكونة للحشد في العراق، يبرز تنظيم عصابات أهل الحق كأكثرها إيراداً للهم الاجتماعي في خطب قاداته وإعلامه. وميزة

والسياسية والإعلامية حول من تعود له أبوة الحشد وإنجازاته، ستجري معارك شبيهة حقيقية ووهمية حول معركة مكافحة الفساد.

### منظمات المجتمع المدني والحشد

انطلقت باكورة التظاهرات من جنوب العراق، بسبب معاناة الناس من شدة الحر وانقطاع الكهرباء واستهتار المسؤولين وفسادهم. وكانت المطالب في البداية محصورة بمحاسبة وزير الكهرباء. ثم تطورت هذه المطالب لمحاسبة المفسدين، وبتزايد عدد المتظاهرين ودخول أطراف عدة تحولت ساحة التحرير في بغداد لكرنفال مطالب لا يشبه بعضها الآخر. يتفوقون على محاربة الفساد، ولكن يختلفون على دور الدين ورجاله، وإيران ودورها، حول استهداف شخصيات وأحزاب بعينها كنوري المالكي، وعمار الحكيم، صدام حسين وابنته رغد وهكذا... وكان بينهم مؤيدون للحشد الشعبي، وآخرون يؤيدون منظمات المجتمع المدني، يساريون وإسلاميون، والمرجعية، والعبادي، وأحزاب السلطة. في مثل هذه الظروف من الصعب تحديد مسار التظاهرات ومن المستفيد منها، فهناك مهرجان مطالب وهناك عدة ملاحظات يمكن رصدها. فإذا ثبتت التقارير التي تتحدث عن أن التظاهرات سيطر أو يحاول السيطرة عليها شباب منظمات المجتمع المدني الممول والمدرّب بأغلبه غربياً،



## يم المشرق

الفصل، فقد أحبطت سوريا خلال السنوات السابقة الخطط والمشاريع الغربية، وصولاً إلى المرحلة الحالية، حيث نُبت الجيش والقيادة نقاط ارتكاز مبنية على الانجازات العسكرية على الأرض، وصولاً إلى المكاسب السياسية. في المقابل، الفوضى وعدم الاستقرار السياسي بدأ ينتقلان إلى تركيا، ومقولة أن تركيا أصبحت جغرافياً زائدة وعبئاً على المنطقة والعالم قد تصبح واقعاً إذا ما تمادى اردوغان في سياساته الحمقاء. فالتدخل واللعب على العامل الديموغرافي لدول الجوار، والإنسياق خلف مشاريع المحافظين الجدد في المنطقة، كقيلة كلها بتفجير تركيا نفسها.

إنها المحاولة الاخيرة لتغيير الواقع وموازين القوى في المنطقة من خلال احياء الخطط القديمة، أي الخطة السرية كما يروج معهد «بروكينغز» brookings، والعودة

إنها حصان طرواده المفضل لواشنطن، والاستثمار في هذا التنظيم الارهابي مستمر ودوره سيكون أكبر في المرحلة المقبلة، وسوف ينتقل التسخين والتصعيد إلى اوكرانيا وجنوب شرق اسيا، فما زالت عين الولايات المتحدة على اسيا الوسطى

## هذا الغموض في التوجه الأميركي ما هو إلا حيلة الإدارة الأميركية

والصين. الديناميات السياسية التي يُراهن عليها من أجل تغيير موازين القوى على الأرض، من خلال العوامل التي أثرت في مسار الصراع من تدفق مستمر من المال، والأسلحة، والدعم السياسي والإعلامي للمجموعات

الإرهابية، لن تؤدي إلى نتيجة، أو إلى تغير في الموازين الاستراتيجية، فالجيش السوري والقوى الحليفة قد أتقنا رسم الخطوط الاستراتيجية لإحباط مخططات الحرب، وثبتنا نقاط ارتكاز على كافة الجبهات، تمهيداً لإسقاط ما تبقى من قوى إرهابية. لقد استنزفت كل وسائل الحرب على سوريا، التي صمدت وغيرت معالم المنطقة. ولن تستطيع الولايات المتحدة وحلفاؤها فرض تسويات بالمفهوم الأميركي. صحيح أن عصر السلام الإقليمي والعالمي ما زال بعيد المثال، إلا أن أطراف الحرب ايقنوا أن إسقاط الدولة السورية هو السراب بعينه، ولا بد من التراجع خطوات إلى الوراء، وقبول الحلول السياسية التي فرضتها حقائق الصمود السوري... وتبقى مفاتيح المشرق راسخة في دمشق.

\* باحث سوري